والاشتراكية الوطنية تقوم فى جوهرها على الفكرة العنصرية ، وعلى الاعتزاز بالجنس ؛ وقد بث الغلو فى فهم هذه العنصرية إلى الشعب الألمانى روحاً عنصرية قوية تقوم من بعض الوجوه على خصومة الجنس ؛ ومن ثم فان الغرباء ، ولا سيما الذين تنم عليهم ألوانهم من الشعوب السامية والشرقية يشعرون بأنهم فى جو غير ودى . وقد لا يتخذ هذا الشعور أية مظاهر مادية ، ولكن ما يلقاه الغريب من مظاهر الأدب والمجاملة يشوبه غالباً شىء من الخشونة والجفاء ؛ وقد سمعت هذه الملاحظة من كثير من الأوربيين والأمريكيين الذين تجولوا فى ألمانيا . على أنه يمكن أن يقال إن الأجنبى يشعر رغم هذه الظاهرة التى تمازجها الصراحة بأنه فى جو أكثر قبولاً مما يأنسه فى فرنسا من مظاهر يمازجها الرياء فى كل شىء

ومنشن غنية بالمتاحف الأثرية ؛ وفى متحف قصر «الزيدانس» وهو قصر ملوك بافاريا السابقين ، مجموعات بديعة من الصور والأثاث ؛ وفى المتحف الوطنى مجموعات زاخرة من الأثاث والأسلحة والأزياء والصور الزيتية ؛ وتوجد عدة متاحف هامة أخرى أشهرها المتحف الفنى الذى يعتبر أعظم متحف فى العالم من نوعه . ولا غرو فقد كانت منشن حتى الحرب الكبرى عاصمة لمملكة بافاريا ، وكانت مقر ملوكية عظيمة لبثت مدى قرنين تسيطر على ألمانيا الجنوبية ؛ وهى ما زالت تعتبر عاصمة ألمانيا الثانية من الوجهة التاريخية والمعنوية

وتتمتع منشن بموقع جغرافى بديع فى هضاب الألب البافارية ، وعلى مقربة من الغابة السوداء ؛ وقد جعلها موقعها مركزاً هاماً للسياحة فى ألمانيا الجنوبية ، ولقد كانت المدينة حين زرناها تموج بجموع غفيرة من السياح من سائر الأنحاء ولا سيما البلدان الشمالية مثل السويد والنرويج والدانمركة وهولندة

هذه صور أملتها الملاحظة والتأمل ؛ بيد أنه يمكن أن يقال رغم كل شىء إن السائح يلقى فى ألمانيا كثيراً من حسن الوفادة . وقد كان لما وضعته الحكومة الألمانية من التسهيلات بالنسبة لمسألة العملة وتخفيض أجور السفر أكبر الأثر فى تقدم السياحة فى ألمانيا ؟

(***)

المـــرأة

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

للمرأة أثرها البين فى كل مجتمع وبالتالى فى أدب ذلك المجتمع ، بل إن مكانتها فى المجتمع وأثرها فى الأدب أوضح دليل على مدى رقى الأمة . وأول ما نصادف من فرق بين تاريخى المرأة العربية والمرأة الانجليزية أن مكانة الأولى تبدأ رفيعة وتظل كذلك حيناً ثم تسير فى انحلال مستمر ، بينما تاريخ الثانية هو تاريخ رقى مطرد الى الوقت الحاضر

كانت للمرأة العربية منزلة سامية وأثر بعيد فى حياة الجاهليين والمسلمين فى صدر الاسلام زادها الاسلام توكيدا ، ويتضح ذلك جلياً فى عظائم الأعمال التى قامت بها المرأة فى ظهور الاسلام وانتشاره والمشادات التى تبعت ذلك ؛ فذاك عصر حافل بأسماء فضليات النساء اللاتى تركن أثرهن فى سير الحوادث وفى الأدب ، وفى ذلك العصر احترفت المرأة شتى الأعمال كالطب والتدريس فى الشرق وفى الأندلس . ومما له دلالته على مكانة المرأة إذ ذاك أن كبار الرجال كانوا يفخرون بالانتساب الى أمهاتهم وعصبيتهن ، وكانوا يلقبون بابن هند وابن عائشة وابن ذات النطاقين فى مجال التبجيل والمدح ؛ وكان للزوجة رأى مسموع ، يشاورها زوجها قبل الاقدام على عمل ، وآثار ذلك فى الأدب عديدة ؛ وقد جرت عادة كثير من الشعراء على تسجيل تلك المشاورات فى أشعارهم يبدأونها بقولهم : « وقائلة . . . » .

ذلك عصر المرأة العربية الذهبى فى الأدب ، ضربت فيه فى الشعر ونقده ومجالسه وفى الخطابة بسهم وافر . وكان فى طليعة الأديبات والبليغات بنات الخلفاء والأمراء ، ولنقتصر من العديدات اللاتى نبغن فى هذا العصر الطويل على ذكر الخنساء وليلى الأخيلية وليلى بنت طريف وعلية بنت المهدى فى الشرق ، وولادة بنت المستكفى وحمدونة بنت زياد فى الأندلس

فلما اتسعت المملكة الاسلامية واختلطت فيها الأجناس وتكاثرت الجوارى واستفحل التسرى وفشا الترف واستحل

ما حرم من المفاسد ، دب دبيب الفساد فى المجتمع كله ، وأخذت حالة المرأة خاصة فى انحطاط شديد مستمر : وهنت رابطة الأسرة ، وتنوسيت أوامر الدين التى تعلى مكانة المرأة وحقوقها ، وأهمل تعليمها ، وشدد عليها الحجاب حتى انفصلت عن عالم الأحياء ، فتلاشى أثرها فى المجتمع وفى الأدب ، فلم يكد يذكر التاريخ اسم امرأة عظيمة ذات أثر فى حياة الأمة أو أدبها

أما مكانة المرأة الانجليزية فى المجتمع فبدأت كما نراها فى قصص تشوسر وروايات شكسبير على درجة من الرقى محسوسة : فهى فى قصص تشوسر تبارى الرجل فى الأعمال العامة ؛ وفى روايات شكسبير تصوير لنساء على جانب عظيم من القدرة والطموح والسمو . وليس أدل على ارتفاع مكانة النساء فى ذلك العهد من قبول الشعب إليزابث — وهى بعد فى حداثتها — ملكة عليه دون تردد ، وإيلائه إياها من الولاء ما لم يوله غيرها من الملوك ، وإظهارها هى من الحنكة السياسية ما بذت به الفحول . وازن ذلك بما كان من ارتياع الناس فى عهد انحطاط المرأة العربية السالف ذكره ، حين وليت شجرة الدر عرش مصر ، حتى بعث الخليفة العباسى يوبخ أمراء مصر ويتوعدهم بالويل والثبور إن لم ينضحوا ذلك العار ، على حين لم يحرك أسلافه ساكناً يوم ولى نفس العرش عبد خصى

واطرد رقى المرأة الانجليزية باطراد رقى المجتمع الانجليزى ، وتزايد حظها من التعليم . وفى القرن الثامن عشر زاد التفاتها إلى الأدب وظهرت الصحف فأقبلت على قراءتها ، وانصرفت همة بعض كتاب العصر إلى تحسين حالها وتثقيفها وترغيبها فى الأدب . وظهرت المنتديات النسائية التى اشتهر بها ذلك القرن وكان يجتمع بها رجال الأدب . فلما كان القرن التاسع عشر طفرت حالة المرأة طفرة عظيمة فى طريق التقدم الاجتماعى والأدبى بانتشار التعليم العام ومشاركة المرأة الرجل فى كثير من الحقوق السياسية والأعمال اليومية ، فلا غرو إن تعاظم أثر المرأة فى الأدب الانجليزى ، وتدفق إنتاجها فى عالمى الشعر والنثر

ولقد اعترضت هذا الرقى فترة انحطاط فى القرن السابع عشر ترجع إلى انتشار الترف والفساد الخلقى اللذين صحبا عودة الملكية الانجليزية التى كانت لاجئة إلى فرنسا ، وهذا شبيه بالترف الذى أدخله الفرس فى المجتمع العباسى ؛ ولكن بيّنا نرى هذا الأخير يستمر ويستفحل حتى يكون فيه القضاء الأخير على الخلق العربى وعلى مكانة المرأة وعلى المجتمع عامة ، نرى المجتمع الانجليزى لا يلبث أن يتحرر من تلك النوبة الطارئة ، وينصب كبار الكتاب — أمثال ستيل وأديسون وجونسون — أنفسهم لتطهير الأدب ورفع مستوى المرأة ، وهى حركة عديمة المثيل فى الأدب العربى : فبدل أن ينصرف أدباء العصر العباسى المترف إلى إصلاح كهذا الاصلاح الحميد تهالك شطر منهم على مفاسد ذلك العصر واعتزل شطر منهم قليل وتوفر على نظم أشعار الزهد

وأثر المرأة فى أدب مجتمعها مزدوج : فمنه ما يقوله الرجل متأثراً بوحيها ، ومنه ما تنتجه هى ذاتها . وتتساوى المرأة العربية والانجليزية من جهة الانتاج فى تقصيرها عن الرجل وضآلة أثرها فى الأدب إذا قيس بأثر الرجل فى شتى أغراض القول ؛ غير أن المرأة الانجليزية تفوق العربية فى كثرة إنتاجها الأدبى ، وكذلك فى كثرة ما أنشأ الرجل حولها من أدب ، لظروف مساعدة أحاطت بتاريخها وحرمتها المرأة العربية فى خير عصورها : من انتشار التعليم العام والطباعة والصحف ، ووجود فن من فنون الأدب فى الانجليزية دون لغة الضاد هو القصة

فالقصة المقروءة أو المثلة التى تدرس المجتمع والنفس الانسانية سبب كبير من أسباب تكاثر الأدب المكتوب حول المرأة : إذ لا غنى ثمت عن درس المرأة بجانب الرجل سواء بسواء ووصف أعمالها وميولها وأثرها فى سير الحوادث ، ومن ثم زخرت روايات شكسبير ومعاصريه ، وقصص سكوت ودكنز وسريدث وهاردى وأضرابهم بشتى الصور لمختلف عناصر النساء ، ومتباين طبقاتهن ومتعدد طبائعهن ، وقد حرمت المرأة العربية هذه الدراسة الأدبية حرماناً تاماً

والقصة من جهة أخرى سبب كبير من أسباب تكاثر الأدب الذى تنشئه المرأة ذاتها ، لأنها تلائم طبع المرأة أكثر مما يلائم نظم الشعر الذى هو أشبه بالرجل ، لأنه يحتاج إلى قوة وفخامة وشمول نظرة لا تتسق لكثير من النساء . أما القصة التى تدرس الحياة الاجتماعية وتصف الحركات والسكنات وتحصى التفاصيل وتتتبع الحوادث ، فتجد فيها المرأة خير مجال للتعبير عن خلجاتها ومشاهداتها . زد على ذلك أن للمرأة من لطف النفس ودقة الملاحظة ما يمكنها من فهم الآخرين والآخريات والالمام بنوازعهم

ومراميهم ، وفضلاً عن هذا وذاك تستطيع المرأة فى القصة أن تعبر على لسان غيرها عن نزعات الحب وأطواره تعبيراً لا يُستساغ منها إن أرسلته شعراً

لذلك كله لم تكد تظهر القصة وينتشر التعليم العام حتى نبغ فى القرن الماضى جمهرة من كبريات القصصيات بارين كبار قصصى العصر الحديث ، وفى مقدمتهن جين أوستن وشارلوت برونتى ومز جاسكل ؛ وفى هذا الفن ، فن القصص ، أنتجت المراة الانجليزية أحسن ما أنتجت من أدب ، على حين كان الشعر هو الفن الذى نبغت فيه المرأة العربية

ومن وجوه الاتفاق بين تاريخى المرأتين أن ظهر لكل منهما فى الأدب الذى تنتمى إليه عدوٌ عنيد أنحى عليها بقوارص الكلام : ففى العربية صب المعرى جام نقمته على الحياة على المرأة التى خيل إليه أن طباعها هى طباع الحياة الخاتلة ، وفى الانجليزية ندد ملتون بالمرأة فى كتاباته وأشعاره ، وأنزلها منزلة دون الرجل ، ووصمها بالحمق والختل ، وجعل شخصية دليلة فى قصته الشعرية عن سمسون الجبار مثال تلك المرأة . على أن مما له دلالته أن ملتون كان فرداً يعبر عن أفكاره الفردية التى اكتسبها من ظروفه التعسة ولا يجد من حوله سميعاً ، بينما كان المعرى ينعب نعيبه فى أوائل عهد انحطاط المرأة العربية واشتداد وطأة الحجاب عليها ، فلا ريب أنه كان يجد آذاناً صاغية وأنه مسؤول عن بعض ما حاق بها بعد ذلك من قهر وإهمال

وقد عرف الأدب العربى عنصراً من النساء لم يعهده الأدب الانجليزى : هو عنصر الجوارى اللائى كن يبرعن فى الأدب والموسيق ويجتمع إليهن الأدباء ويشببون بهن ، ولكن الأدب الجزل الصحيح لم يستفد كثيراً من ذلك العنصر المترف المتبذل ، فى حين أن أثر أولئك الجوارى فى سقوط منزلة المرأة واضح محقق

ويمكن حصر الأدب المتعلق بالمرأة فى اللغة العربية فى أبواب أربعة : النسيب ، وحوادث عظيمات النساء ، والتمدح بالعفة واحترام المرأة فى عصرها الأول ، والغض منها فى عصرها المظلم

والتمدح بالعفة وتوقير المرأة والتقرب إليها بمكارم الأعمال من أنبل أغراض الأدب العربى وهو ضرب من القول ينفرد به دون الأدب الانجليزى ؛ وبديهى ألا يكون ذلك إلا فى عهد علو مكانتها فى النفوس ، ومنه قول مسكين الدارمى :

ما ضر جارى إذ أجاوره ألا يكون لبيته ستر

أعمى إذا ما جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الخدر

وقول أبى فراس :

ورحت أجر رمحى عن مجال تحدث عنه ربات الحجال

ارتدت هذه الرعاية الكريمة للمرأة تحقيراً وسخرية حين فسد المجتمع ، فلم يستحى الشعراء أن يطلقوا فيها ألسنتهم ، فمن قائل :

عسر النساء إلى ميسرة والشىء يسهل بعدما جمحا

وقائل :

ومن خبر الغوانى فالغوانى ضياء فى بواطنه ظلام

وقائل :

وإن حلفت لا يخلف النأى عهدها

فليس لمخضوب البنان يمين

وهو هجاء للجنس اللطيف استمرأه ساقطو الهمة من الشعراء وتنزه عنه الأدب الانجليزى ، فاقتصر على النسيب الرقيق والمداعبة الرفيقة والدراسة العلمية البريئة لشتى الطبائع والشخصيات النسوية

والنسيب هو مجال ظهور المرأة الأول فى الشعر ، وفيه أى دليل على رقى المجتمع ومكانة المرأة فيه . وفى الأدبين العربى والانجليزى نسيب على غاية من السمو والنقاء ؛ وأكثر ما كان ذلك فى الأدب العربى فى عهد ارتقاء مكانة النساء الاجتماعية ، هناك كان شعر النسيب فى جملته عفيف اللفظ نقى الاشارة صادق العاطفة على خشونة وسذاجة فى بعضه ، فلما كان عصر الترف والفساد هوى النسيب إلى حضيض الشهوات وداخله التكلف فى الشعور وفى اللفظ ، وخالطه من الفحش والنسيب بالمذكر ما تنزه عنه الشعر الانجليزى

ففيما عدا فترة الفساد الخلقى الوجيزة فى التاريخ الانجليزى التى تقدم ذكرها ، يمتاز النسيب الانجليزى بسمو العاطفة وطهارة اللفظ والترفع عن ذكر الشهوات والتسامى عن الأوصاف الجسمية التى تشغل حيزا غير ضئيل من النسيب العربى ، فالشاعر الانجليزى يعد جمال محبوبته أمراً مفروغاً منه ، فان أشار إشارة عاجلة إلى محاسنها فالى نقاء بشرتها أو لمة شعرها ، وإن عمد إلى التشبيه فانما يشبه عينيها بالسماء صفاء أو صدرها بالدر نقاء وبعداً عن منال الرجال ، إلى غير ذلك مما هو أدخل فى الأوصاف النفسية وأدل على السمو الروحى .

فتحى أبو السعود